القسم الثاني

مؤلفات فكرية

obeikandl.com

obeikandl.com

كتاب
النقد الذاتي [1]

لعل كتاب «النقد الذاتي» هو أشهر كتب علال الفاسي على الإطلاق ، فهو أكثرها طباعة ونشرا ورواجا . وهو من أسبق مؤلفاته تاريخا ؛ فقد نشره ـ أول ما نشره ـ على شكل بحوث ومقالات بمجلة «رسالة المغرب» ، وذلك في سنتي ١٩٤٩و١٩٥٠ ، أي قبل استقلال المغرب ببضع سنوات . ويمكننا أن نقول عن هذا الكتاب أيضا : إنه أول كتاب ألفه علال الفاسي بعد أن بلغ أشده وبلغ أربعين سنة .

وأهم من ذلك أن نعلم أن هذا الكتاب قد أعدت أفكاره وحررت مادته في وقت كان استقلال المغرب قد بدأ يلوح في أفقه ، وخاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وتأسيس هيئة الأمم المتحدة . في هذا الوقت كان لا بد من التفكير في مرحلة الاستقلال وفي بناء دولة الاستقلال . ولقد كان علال الفاسي من أكثر الناس ـ إن لم يكن أكثرهم ـ تفكيرا وإعدادا لمتطلبات هذه المرحلة .

كانت النخبة الوطنية منهمكة في الكفاح لأجل الاستقلال ، وكان علال ضمن طلائعها في هذا الميدان ، ولكنه كان يعي جيدا أن المغرب المطلوبَ استقلالُه وبناؤُه لا يمكن ولا يجوز أن يكون هو مغرب التخلف والضعف الذي تمكنت فرنسا وإسبانيا من غزوه والتحكم فيه لأكثر من نصف قرن . كما لا يجوز أن يكون هو المغرب الذي حاول المحتل صياغته على مزاجه ووفق

(١) الطبعة السابعة ـ دار الثقافة بالدار البيضاء ـ ١٤٢٢ـ ٢٠٠٢ .

مصلحته ، ويريده أن يستمر على ذلك المنوال .

كان علال الفاسي ، بحكم شخصيته وتكوينه ، وبحكم تفاعلاته المشرقية في القاهرة وغيرها ، متشبعا بفكرة النهضة وفكر النهضة ، كما كان متشبعا بالفكر الإسلامي السلفي التجديدي ، وكونِه أساس هذه النهضة وروحها . ولكنه أيضا كان مستوعبا غاية الاستيعاب لتجربة النهضة الأوروبية ودروسها الفكرية والسياسية والاقتصادية . من هذه المنطلقات كان علال يفكر ليس فقط في الحصول على الاستقلال ، ولكنه كان يفكر أيضا في دولة ما بعد الاستقلال ، ومجتمع ما بعد الاستقلال ، وتحديات ما بعد الاستقلال . فهذه هي قضايا كتاب (النقد الذاتي) . إنه برنامج إصلاحي نهضوي للدولة والمجتمع .

يقول الدكتور محمد الكتاني ، عضو أكاديمية المملكة المغربية : «إن مشروع النهضة كما يتراءى من خلال كتاب (النقد الذاتي) ليس مشروعًا نظريًا تهيمن عليه الرؤية الفضفاضة ، أو الأفكار المثالية المجردة . وإنما هو مشروع مجسم بأدواته وإجراءاته العملية . وجاهز للتطبيق . كما ينم عن فكر رجل سياسي محنك . ومطلع على تجارب الأمم الحديثة في الشرق أو في الغرب . وهو يجمع في رؤيته الشمولية بين الجانب السياسي والجانب الاقتصادي والجانب الاجتماعي بكل تفاصيلها . إلا أن هذا المشروع يظل محكومًا بالمحيط العام للمرحلة التاريخية التي كان المغرب يجتازها في منتصف هذا القرن» [(١)] .

منذ استقلال المغرب سنة ١٩٥٦ ، تتحدث مختلف الحكومات والأحزاب

(١) بحث : مشروع النهضة المغربية انطلاقا من (النقد الذاتي) ، ضمن كتاب : (في رحاب فكر علال الفاسي ـ محاضرات ألقيت في مؤسسة علال الفاسي إحياء لذكرى وفاته الفضية) ص٩ .

والتيارات عن النموذج المجتمعي للمغرب الحديث ـ أو الحداثي عند البعض ـ دون أن يقدموا لنا سوى نتف وأماني ذات طبيعة إديولوجية . ولكن علال الفاسي قدم للناس ــ قبل استقلال المغرب ــ رؤيته ونموذجه المتكامل للمجتمع المغربي وللدولة المغربية .

فبينما كان كثير من زعماء التحرير في أقطار المغرب العربي مشغولين بالاستقلال ذاته ، لا يكادون يفكرون فيما بعده ، كان علال الفاسي مشغولا بما بعد الاستقلال . ولذلك ألف هذا الكتاب وغيره ، ليشغل العقول بهذه المرحلة ومتطلباتها ، حتى لا يذهب الاستقلال وما تطلبه من جهاد وتضحية سدى . بل كان يريد أن يجعل من حديثه عن آمال ما بعد الاستقلال وبرامج بنائه واستثماره حافزا إضافيا للمصابرة ومواصلة الجهاد ، ومواجهة المثبطين المشككين في جدوى الاستقلال والآمال المعلقة عليه . يقول ~ : «ولقد دعوت في خاتمة كتابي «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي» رجال هذه الحركات إلى أن يهتموا بتكوين النظرية ووضع البرنامج المفصل الذي يسهل علينا تحقيق الإصلاحات العميقة التي تنشدها أمتنا متى تم لها الاستقلال وظفرت بالحرية ، حتى لا يقع لها من التبلبل ما يشككها في قيمة الكفاح الذي تبذله الآن بالنسبة لتقدمها وتحسين حالها .

وإذا قدر للنخبة المغربية أن تجتمع يومًا ما لتضع برنامجًا عامًا مفصلًا لكل فروع الحياة ومظاهر النشاط القومي في مغرب الغد ، ووجدت في هذا الكتاب ما يدلها على سبيل تحقيق غايتها فسيكون ذلك خير جزاء على الجهد الذي بذلته ، والطريق الذي مهدته .

وعلى الله سبحانه مكافأة الجميع» [١] .

وهذا الكتاب يتناول قضايا متنوعة يمكن تقسيمها إلى نوعين :

قضايا مبدئية ومنهجية .

وقضايا عملية آنية .

ونظرا لما تتسم به قضايا النوع الأول من أهمية ومـ(ا تحـ(تفظ بـه مـن صـلاحية لمختلف الأحقاب والأحوال ، فإني سأركز عليها في هذا العرض .

النقد الذاتي أولا :

من أهم خصائص هذا الكتاب تركيزه على المعنى الذي عبر عنه المؤلف منذ عنوانه ، وهو النقد الذاتي . في أواسط القرن العشرين كان لسانُ الحال عند الزعماء والنخبة السياسية يقول : نحن وشعوبنا لا ينقصنا سوى خروج المحتل ونيل الاستقلال وتسلم السلطة ، وسننطلق فورا في مسيرة التقدم والنهضة . أما لسان الحال والمقال عند علال ، فكان يقول : نحن قبل كل شيء بحاجة إلى ممارسة نقد ذاتي صريح وشامل لأنفسنا ومجتمعاتنا .. وكان يرى أن النقد الذاتي شرط أساسي لنهضتنا وتقدمنا ، لأن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإن أمة أصابها كل ما أصابها من بلايا ونكبات ، في ذاتها وأمام أعدائها ، لهي أمة تحتاج أول ما تحتاج ـ وبأسرع ما يمكن ــ إلى نقد ذاتي صريح وشامل ، لكي تدرك مواطن الخلل ومكامن الداء .

التفكير اجتماعيًا :

لعل هذا المبحث من الكتاب هو أكثر مباحثه تعبيرا عن عنوانه وسر تسميته

---

(١) النقد الذاتي ، ص٩ـ ١٠ .

باسم النقد الذاتي . ففيه نقد شديد لآفة الأنانية ، التي تجعل المجتمع يفقد أخص خصائصه من حيث هو مجتمع ، وهي الخاصية التكافلية التكاملية لأفراده ، فيتحول المجتمع مع هذه الآفة إلى مجرد عناصر متفككة متنافرة ، وإن كانت متلاصقة متزاحمة . والعلاج عنده يبدأ من التفكير ، وخاصة التفكير بصيغة الجمع ومنطق الكتلة ؛ أي التفكير في الجماعة ومعها .

وأُوردُ فيما يلي فقرات من الكتاب ، تعبر عن مضمون هذا المبحث ومقاصده الإصلاحية :

«إذا كانت الأنانية البغيضة تعني حب الإنسان لنفسه وعدم الاهتمام بشؤون غيره ، فإن التفكير اجتماعيًا يعني التفكير بالغير ، والعناية بأحواله والعمل على إصلاحها .

لا يمكن لأمة ما أن تنهض من وهدة السقوط التي وقعت فيها إلا إذا تدربت على أن تفكر اجتماعيًا ، وتعودت على أن لا ترى في مسائل الأفراد أو الطبقات الأخرى شؤونًا بعيدة عنها أو غير عائدة إليها .

ولقد ألفنا نحن في بلادنا أن لا نفكر بأحد ولا ننظر في أمر بشر ، كأن العالم كله محصور في وجودنا الخاص الذي إذا تجاوزناه في تفكيرنا فلن نتعدى حدود أضيق الدوائر التي لها صلة أكيدة بنا .

ننظر كل صباح فيما يرجع لمعاشنا فلا يهمنا إلا ننسق ألوان الطعام وأنواع الملذات التي يسرنا أن نراها أمام أعيننا كلما عدنا من جولتنا في ميادين التجارة أو غيرها مما نبذل في ناحيتها كل مجهوداتنا لنتفوق على من عدانا ، معتزين بفرديتنا ، فخورين بنجاحنا فيما خسر فيه الآخرون ، فإذا آن وقت الطعام

التهمناه التهامًا ونحن معرضون كل الإعراض عن التفكير بآلاف الجائعين والجائعات الذين لا يستطيعون أن يسدوا رمقهم حتى بمثل عشر العشر بما نستطيع .

ونختار لأنفسنا ولأهالينا الملابس الرفيعة والحلي البديع ، متعدد الألوان ، مختلف الأشكال دون اهتمام بملايين العارين والعاريات من إخواننا وأخواتنا الذين لا نفكر إلا في كونهم يسيئون إلينا ، بظهورهم أمام أعيننا يذكروننا بالبؤس ويجعلوننا نحس ولو من بعيد بالشقاء» [١] !

«يجب أن نأخذ أنفسنا على تفكير غير رجعي ، بل تفكير ثوري يخرج بنا من ضيق الأفق الذي كونته في الإنسانية طبقة المنافقين .

وإذا قلنا الثورة فلا نعني الهدم أو الخروج على العدل الذي يعني في اللغة العربية المساواة ، ولا على الإحسان الذي يعني في الإسلام الإتقان والتقوى ، ولكننا نريد الانعتاق من تقاليد البيئة الاجتماعية التي جعلتنا لا نحس إلا بوجودنا الخاص .

لنثر على أنفسنا وعلى أوضاعنا ، ولنلب نداء القلب الذي لم تحط به الأوزار ، والعقل الذي لم تعمه الأطماع ، ولنكون منا الكتلة التي تحرر المجتمع من رق الفقر ، وبؤس المرض ، وكابوس التعطل ، حتى نصنع للمغرب المستقل شعبًا متآخيًا في النفس ، متساويًا في الحال ، متضامنًا في الاستقلال» [٢] .

المسألة الفكرية في كتاب النقد الذاتي :

علال الفاسي كان رجل علم وفكر وتنظير ، بقدر ما كان رجل سياسة

---

(١) النقد الذاتي ، ص١٦ .

(٢) النقد الذاتي ، ص ١٨ ، ١٩ .

ونضال ميداني . وقد برز ذلك جليا في هذا الكتاب ؛ فالكتاب وإن كان برنامجا عمليا لتأسيس الدولة المستقلة وبنائها سياسيا وتشريعيا واقتصاديا واجتماعيا ، فإنه أيضا كتاب فكر ونظر وفلسفة ونقاش علمي .

ومن آيات ذلك :

١ـ قوله في تصدير الكتاب : «لا أقصد من هذا الكتاب الذي أضعه اليوم بين يدي القراء غير تنبيه الرأي العام المغربي وخاصة النخبة العاملة لضرورة الإيمان بالنظر والحوار» .

٢ـ أنه كان متحسبا للتيارات الفكرية الغربية التي بدأت يومئذ تهيمن على عقول النخبة المتعلمة ، والنخبة السياسية على الخصوص ، وكان حريصا على مخاطبة هذه النخب ومحاورتها وإقناعها بالحجة والبرهان .

٢ـ حرصه على تعزيز آرائه وتحليلاته بكل ما يستطيعه من قراءات ومراجعات ومقارنات ، وحجج عقلية ومستندات علمية وتجارب عملية .

٣ـ تركيزه المتكرر على الإصلاح الفكري ، باعتباره مدخلا ومَعْبرا لكل إصلاح آخر .

٤ـ دعوته إلى الترفع عن مستوى الفكر العامي السطحي والاعتماد على الفكر العلمي الراقي ، الذي يسميه بالأرستقراطية الفكرية» [١] .

٥ـ ومما يعكس مدى اهتمامه بالجانب الفكري والتأسيس العلمي للنهضة قوله في بداية الكتاب : «ولقد بذلت فيه ـ علم الله ـ جهد المخلص الذي يريد البناء ، ويسعى في التجديد ، ويعز عليه أن يترك الحيرة تعبث بعقل شباب

(١) النقد الذاتي ، ص٤٠ .

الأمة وقلبه ، وقرأت لكل فصل منه ، قبل أن أكتبه ، عشرات المؤلفات العربية والمعربة والفرنسية والمنقولة للغة الفرنسية ، من لغات أوربا الشرقية والغربية وأمريكا وآسيا ، ودرست وجهات النظر المتباينة ، وقارنت بينها بقدر الاستطاعة ، ثم عرضتها على تجاربي في الكفاح وتقلباتي بين الكادحين في أقطار عديدة طيلة خمسة وعشرين عامًا ، وحاولت أن أستخلص من كل ذلك التوجيهات التي أضعها بين يدي إخواني لينظروا فيها ويستفيدوا منها» .

٦ـ وبعد هذا كله نجده يقول بلهجة العالم المتواضع والمحاور البارع : «وليس ما أعرضه في هذا الكتاب أفكارًا أفرضها على قرائي أو ألزمهم بانتحالها ، بل إنها ليست بأفكار نهائية حتى بالنسبة إليّ ، وإنني مستعد لأن أعيد النظر في كل رأي منها مع أي واحد ممن يهمهم الدرس والبحث عن الحقيقة رغبة في اتباعها . إنني لا أعتبر ما كتبته في النقد الذاتي أفكارًا ، وإنما هو دلالة على أفكار . وقصارى ما أريد هو أن يتعلم القارئ حب البحث والنظر ، والإيمان بالعقل وبالمثل العليا كوسيلة لما يجب أن يصل إليه من حقيقة ومعرفة» [(١)] .

٧ـ وفي آخر الكتاب يعود إلى التذكير والإلحاح على أهمية التفكر العلمي المنهجي فيقول : «إن أصعب ما غرر الكثيرين من المسلمين ، وغيرهم في الشرق وفي الغرب هو هذا الادعاء الذي يتبجح به أصحاب المذاهب والنظريات ؛ إذ كلهم يزعمون بناء أفكارهم على قواعد علمية لا تقبل الرد ، وعلى مناهج عقلية لا يتسرب إليها الشك ، وما ذلك إلا ادعاء وتضليل . ولهذا كان أول ما دعونا إليه هو التفكير ، هو أن نفتح عقولنا وأذهاننا . ونسمح لأبصارنا وبصائرنا بالشك في كل ما يعرض علينا ، ونعمل على أن لا

(١) النقد الذاتي ، ص٩ ، ١٠ .

نأخذ بفكرة أو نظرية إلا بعد تمحيصها وتطبيقها على ما هو منا وإلينا . وهذا المنهج العقلي لم يكن من مبتكراتنا ، وإنما كان هو المنار الذي أشعله العرب والمسلمون دائمًا في عصور نهضاتهم وتطوراتهم المختلفة» .

التفكير شموليا :

في هذا المبحث من الكتاب نجد جانبا آخر من جوانب المسألة الفكرية وتجلياتها . وهو يعكس مدى أهمية هذه المسألة في بناء مجتمع النهضة الذي كان ينشده علال الفاسي ويسعى إلى تأسيسه . ولكنه أيضا استمرار في عملية النقد الذاتي للمجتمعات العربية وقادتها ، وللعقلية التجزيئية الارتجالية السائدة عندنا في تدبير الأمور .

وهذه فقرات من الكتاب توضح هذا الجانب .

«لا بد لتحقيق روح التضامن بين أفراد الأمة وطبقاتها ، من تربية التفكير الشامل الذي يعانق كل الموضوعات التي تتوقف عليها نهضة الأمة والذي يستحضر في الوقت نفسه كل الأجزاء التي تتكون منها البلاد ، والعناصر التي تتركب منها الأمة نفسها» [١] .

«إن التفكير شموليًا هو أن نستحضر أثناء اهتمامنا بعمل ما جميعَ أجزاء البلاد وعناصر الأمة . إنه أن ننظر إلى وطننا ككل لا يقبل التصور إلا كاملًا ، وإلى النفع كخير لا يمكن تحقيقه إلا شاملًا» [٢] .

«إذا كان اهتمامنا يجب أن يشمل جميع الجهات والأفراد الذين هم محط عنايتنا ، فيجب أن لا نذهل عن شمول آخر أثناء تفكيرنا فيما يجب أن نقوم به

(١) النقد الذاتي ، ص ٢٠ .

(٢) النقد الذاتي ، ص٢٣ .

لصالح بلادنا .

يجب أن نتناول بالنظر مجموع المسائل والجوانب التي لها علاقة بقضية النهوض بأمتنا ، فلا نغفل عن ناحية منها ، ولا نعير التفاتنا الكامل إلى جانب منها دون الآخر ، حتى لا نقع في عدم التوازن الاجتماعي الذي يؤدي إلى عدم استفادتنا من الجانب الذي أثار اهتمامنا نفسه .

يجب أن يحيط تفكيرنا بكل العناصر الروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقومية ، وأن ينظر إلى كل واحدة منها مفصلة إلى أجزائها المتعددة وإلى غصون تلك الأجزاء المتفرعة ، وأن ينظر إلى مجموعها كتركيب لا بد منه لتحقيق المثل الأعلى الذي نصبو إليه ، ثم إلى علاقة كل واحد منها ببعضها ومكانه في الانسجام الكامل لمجموع تلك العناصر» [١] .

«لا شك أن لحالتنا الاجتماعية ولمواقف رؤسائنا من الأمة قسطًا كبيرًا في المسؤولية ، فيجب أن نعتبر بالماضي عندنا ، وبالواقع عند الأمم التي سبقتنا ، وأن نعمل باهتمام وتفكير لمعرفة كل أدوائنا ونعدَّ كل ما يلزم لعلاجها .

إن الإحاطة في التفكير تستلزم منا جهدًا جبارًا ما دامت تعني عدم إغفال أي جانب من جوانب الإنهاض ولا عامل من عوامل التطوير ، وإن واجبنا أن نعرف أنفسنا ونتعاون على دراسة أحوالنا كي نستطيع القيام بهذه المهمة العظيمة التي لابدّ منها لضمان مستقبل الحرية والاستقلال المنشودين في المغرب» [٢] .

«أقولها مرة أخرى : إن الذهنية المغربية يجب أن تدرس ، ويجب أن نفكر في

(١) النقد الذاتي ، ص٢٤ .

(٢) النقد الذاتي ، ص٢٧ .

وسائل تبديلها ؛ لأنها ما دامت على هذه الصفة ، فإن كل نهوض شعبي سيظل بطيئًا ومشكوكًا في صموده إزاء هذه الآفات النفسية الكبرى» [١] .

«ومهما يكن فإن من أخطر الأدواء التي يشتكي منها العرب اليوم ـ والتي كان لها نصيب كبير في فشل كثير من شؤونهم ـ أنهم لا يُعدون للأمر عدّته ولا يحتاطون له قبل حينه ، ولكنهم يظلون في تغافل وفي تردد ثم يرتجلون الأفكار على ضوء الحاضر السريع ويرتجلون بعدها للعمل على حسب ما تقتضيه الظروف .

لقد ظلّت قضية فلسطين منذ ربع قرن الشغلَ الشاغل للبلاد العربية ، وكان لها من المدى في أفواه الخطباء وأقلام الصحف العربية ما لم يكن لغيرها ، ولكنها لم تنل في يوم من الأيام العناية الجديرة بها فلم يهتم بشأنها رجال الفكر ولا رجال العمل . وبينما كان الصهيونيون يفكرون في وضع البرامج وكيفية تنفيذها ، ويهربون الأسلحة والمهاجرين لداخل البلاد ويحصنون القرى والمستعمرات ، كان رجال فلسطين يتحسرون على ما أصابهم ويجتمعون الآونة بعد الأخرى ليلقوا خطابًا ، أو يبعثوا كتابًا ، ولم يفكروا قط في ضرورة الاستعداد للموقف الحاسم والكفاح الأخير . ولم يكن كثير من المسؤولين في البلاد العربية يقدّر القضية قدرها ، أو يعتبر خطورتها فضاعت من أيدي العرب فرص كثيرة كان يمكنهم معها أن يعدوا للصهيونية ما يستطيعون من قوّة ومن مرهبات ، ولكنهم ظلوا مترددين فيما يجب أن يعمل حتى إذا صدر قرار التقسيم هبوا تدفعهم الغيرة ويحدوهم الكبرياء فاندفعوا يرتجلون ما في استطاعتهم من عمل ، وقد فعلوا المعجزة ، ولكنها معجزة الارتجال على كل

(١) النقد الذاتي ، ص٢٩ .

حال[١] .

لنَـثُر على عادة الارتجال ، ولنكن أقدر على الإعداد والتحضير حتى نستطيع أن ندرس في أناة ونعمل في سعة ، وننجح في الإبان ، ولا يكون حظنا في الندم على ما فات» [٢] .

نحو أمة تفكر :

في سياق الخط النقدي للكتاب ، يرى علال الفاسي بحق «أن تعميم التفكير في الأمة هو سبيل نهوضها وتحريرها» [٣] . فشيوع التفكير لدى عامة الناس ، ومنه التفكير النقدي الذي يمحص ويختار عن بصيرة ووعي ، شرط من شروط النهضة والتقدم .

ومن مجالات التفكير الأساسية الملحة تفكير كل واحد فيما يلزمه ويجب عليه ، وهو ما يسميه علال : التفكير بالواجب ، أي أن يكون الذهن عامرا مشغولا بالواجب منهمكا فيما يتطلبه . يقول : «وكان يمكنني أن أقول : «الشعور بالواجب» ، ولكنني آثرت كلمة التفكير لأنني أريد أن يكون الواجب هو شغل الفكر الشاغل الذي يملك على صاحبه كل المنافذ ، فلا يتركه يهتم بشيء قبل أن يقوم بأدائه ليحصل على رضا فكره وطمأنينة ضميره . والحق أننا لا نشعر بالواجب ولا نفكر فيه .

إن عدم الاهتمام بالواجب هو الذي يفسد على عائلتنا تربية أبنائها وطمأنينة حياتها ، وهو الذي يفسد على ولاتنا مقدرتهم على تحمل المسؤولية والاضطلاع

---

(١) النقد الذاتي ، ص٣٢ ، ٣٣ .

(٢) النقد الذاتي ، ص٣٥ .

(٣) النقد الذاتي ، ص٤٧ .

بالمهام ، وهو الذي يحول دون صحفنا ومجلاتنا من أن تسير إلى الأمام ، لأنها لا تجد أولئك الكتاب الذي يواظبون على أداء مهمة الكتابة المتقنة في الوقت المنشود ، وهي التي تحول بيننا وبين المشاركة في كثير من المظاهرات الثقافية أو العربية على الأقل ، وهي التي كثيرًا ما تمس بصميم حركتنا فتؤخر نجاح عديد من أعمالها .

إن التفكير بالواجب وأداءَه في وقته من الأسس الضرورية للقدرة على المواظبة والخلق ، وإنه ما دام لم يتسرب في نفوسنا فنحن لا نستطيع أن نأتي الأعمال إلا مبعثرة وغير خاضعة لترتيب مضبوط .

لقد شرع الإسلام الصلاة في أوقات معينة ، والصيام في شهر محدود ، والحج في أيام معدودات ، كل ذلك ليعلمنا التفكير بالواجب ويدربنا على أدائه في مواقيته التي لا تقبل التأخير ، ولكننا أضعنا الصلاة وألفنا الصيام وأهملنا كل ما يبعث في نفوسنا هذه الغاية التي قصد إليها الإسلام» [1] .

ثم لا بد من العبور والارتقاء من التفكير العادي أو العامي إلى مقام التفكير العلمي المستنير ، أو ما يسميه بالتفكير الأرستقراطي . «إن الفكر الصحيح الذي تحتاجه الأمة ويمكنه أن ينقذها من مصائبها ، ليس هو تفكير الشارع الذي يبنى على أصول عادية نتلقاها كل يوم من مختلف الأوساط والهيئات التي لا ندريها ، ولكنه فكر الطبقة المتنورة التي تستطيع أن تقلب الأشياء على وجوهها وتنفذ إلى أعماقها .

إن الديموقراطية حسنة في كل شيء ، إلا أن الأرستقراطية الفكرية شيء

(١) النقد الذاتي ، ص٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

ضروري لتوجيه الأمة» [١] .

«يجب أن يتكوّن بيننا التفكير الرفيع الذي ليس بالمرتجل ولا بالعامي . وأن نتمرن على قبوله متى ظهر ، ونفسح المجال لأصحابه ، ولكن يجب أن نكون قادرين على تمييزه حقيقة من بين مختلف النظريات العارضة المرتجلة التي نتلقاها من هراء الشوارع في المشرق والمغرب ، وننقلها للناس على أنها شيء جديد يُصلح من حالهم ويرفع من شأنهم .

إن للأرستقراطية الفكرية طابعها الممتاز وهو اليقين والحرارة والبناء» [٢] .

الدين وبناء الدولة :

من الطبيعي لمفكر مؤمن وعالم مسلم أن يكون الدين عنده حَجَرَ الأساس في كل بناء وكل إصلاح . وأساسُ الأساس الإيمانُ بالله تعالى . ولكن زمننا هذا ، ومن أيام علال وقبلها ، عرف رواجا لأفكار «حداثية» ترى إبعاد الدين عن الدولة ، وأن الإيمان والتدين مسألة شخصية باطنية ... وبعضهم يرى أن وظيفة الدين قد انتهت بالمرة ، وأن زمن المثاليات قد ولى بغير رجعة .

وقد كانت هذه الأفكار في زمن تأليف الكتاب «منتصف القرن العشرين» أكثر رواجا وأكثر قوة وأكثر قبولا مما هي عليه الآن . ولكن هذا لم يمنع صاحب «النقد الذاتي» من التصدي لهذه الفكرة وتأكيد الحقيقة التي يؤمن بها ، وهي أن «الإيمان بالله في مقدمة الأسس التي يجب أن نستحضرها عند العزم على الهجرة إلى الغاية البعيدة . أما التجرد عن هذه المثالية الصحيحة فمعناه انحطاط بالإنسان وبالشعوب إلى أسفل الدركات» [٣] .

---

(١) النقد الذاتي ، ص٤٠ .

(٢) النقد الذاتي ، ص٤٣ .

(٣) النقد الذاتي ، ص٩٤.

ثم ينبه على وهمٍ شائع عند كثير من المثقفين ، فيقول : «وإنه لمن خطل الرأي أن نعتقد بأن الغرب قد تقدم بسبب هذا التجرد ، فإن الذين بذلوا الجهود الجبارة ليقظة أوربا وأمريكا لم يكونوا بعيدين عن الله ولا متجردين من مثاليته ، وإذا كان قد وجد من كبار الكتاب أو الفلاسفة من لم يستطع الإيمان ، فإن تأثير هؤلاء في مئات الذين عملوا لرقي الغرب معدوم» (١) .

«وإذا نحن تعمقنا في الفكرة التي تقول بفصل الدين عن الدولة نجد أنها إنما تسعى لخلق دولة داخل الدولة . وقد بيّن «طارديو» في كتابه (العاهل المأسور) : أن منشأها التاريخي لم يكن إلا رد فعل بعض الرهبان الألمان لمقاومة الاضطهاد الحكومي للمسيحية في ألمانيا . ونزيد نحن بأن مصدرها الأساسي هو هذه الفكرة الأساسية التي قالها الإنجيل : «يجب أن يبقى ما لله لله وما لقيصر لقيصر» ، وإذن فالذين يدَّعون أنها ثورة على المسيحية إنما يزعمون باطلًا ، لأنها أصل من أصول المسيحية . وأعتقد أن المسيح لم يقبلها أولًا إلا للتحرر من تدخل القياصرة الرومانيين الذين لم يكونوا تمسحوا بعد» (٢) .

*****

(١) النقد الذاتي ، ص٩٤.

(٢) النقد الذاتي ، ص٩٨.

obeikandl.com

كتاب
حديث المغرب في المشرق [١]

محتويات هذا الكتاب هي بعض من المحاضرات والخطب التي ألقاها علال أيام إقامته بمصر . وأكثرها ألقي في القاهرة ودمشق . وهي كلها كانت للتعريف بالمغرب وقضيته آنذاك ؛ قضية الاستعمار الفرنسي وكفاح المغاربة من أجل الاستقلال .

المحاضرات التي تضمنها الكتاب تسع هي :

١ـ الحركة السلفية في المغرب . ألقاها بقاعة المحاضرات بالأزهر الشريف ، بطلب من الشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، وكيل الأزهر يومذاك .

٢ـ أهمية المغرب بالنسبة للدول العربية . ألقاها بالنادي العربي بدمشق .

٣ـ إسهام المرأة المغربية في الكفاح الوطني . ألقاها بنادي المحامين المصريين ، بدعوة من الحزب النسائي المصري .

٤ـ قضية المغرب وتطوراتها . ألقاها بجمعية الشبان المسيحيين بالقاهرة .

٥ـ الأزمة المراكشية . ألقاها بمدرج كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، بدعوة من اتحاد الشباب العربي .

٦ـ ذكرى المطالبة باستقلال المغرب . ألقاها بمكتب المغرب العربي بالقاهرة ، في ١١ يناير ١٩٥٣ ، وهو يوم ذكري تقديم وثقة الاستقلال .

٧ـ المؤامرة الفرنسية لنفي جلالة سلطان المغرب . ألقاها أمام اللجنة

---

(١) طبعة صدرت بالقاهرة عن المطبعة العالمية ـ سنة ١٩٥٦م .

obeikandi.com

السياسية للجامعة العربية ، ثم في عدة أندية عربية .

٨ـ السياسة الفرنسية وجريمة إبادة الجنس المغربي . ألقاها بدمشق .

٩ـ قضية المغرب ودول باندونج . ألقاها بالمعهد السياسي الدولي بالهند ، ثم بعدة أندية بباكستان .

*****

obeikandl.com

كتاب
إشراقات علال الفاسي الفكرية [١]

يحتوي هذا الكتاب على أربعة موضوعات تناولها علال في مناسبات وأزمان مختلفة .

١ـ بديل البديل :

وهو بحث تحليلي لكتاب (البديل) ، الصادر آنئذ للفيلسوف الفرنسي الشهير روجيه جارودي ، وكان يومها لم يدخل بعد في الإسلام . وقد نشر بحث علال الفاسي هذا بالملحق الثقافي لجريدة (العَلَم) ، بتاريخ ١٥ نونبر ١٩٧٣ .

٢ـ لا شيوعية ولا رأسمالية :

وهو مقال نشره بمجلة (دعوة الحق) في عددها الثاني ، في غشت ١٩٥٧ .

٣ـ الوسائل العلمية لبعث إسلامي :

وهو عرض افتتح به مؤتمرا عقد بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم ، ونشر بمجلة (الإيمان) في عدديها التاسع والعاشر (فبراير ومارس ١٩٦٨) .

٤ـ هل الإسلام في حاجة إلى فلسفة؟

وهو نص محاضرة ألقاها للجواب على سؤال تلقاه من جمعية شباب النهضة الإسلامية ، ونشر بمجلة (الإيمان) ، في عدديها الأول والثاني (دجنبر ١٩٦٣ ويناير ١٩٦٤) .

---

(١) نشرته مؤسسة علال الفاسي سنة ١٩٩٦ـ جمع مادته وأعده عبد الرحمن الحريشي ..

obeikandl.com

وسأقتصر في هذا العرض على الموضوع الأول (بديل البديل) ، لكونه أهم الموضوعات الأربعة وأطولها ، ولكونه من أواخر ما كتبه علال ، ونشر قبل وفاته بستة أشهر [١] .

روجيه جارودي [٢] ومساره الفكري :

يقول علال الفاسي : «روجيه جارودي من الشخصيات الفرنسية الملتزمة سابقًا في الحزب الشيوعي الفرنسي ، لبث عضوًا رسميا فيه مدة ٣٨ عامًا ، قضى العشرين عامًا الأخيرة منها في عداد قادته الممتازين إلى جانب طوريس وأراجون وغيرهما من رجال الفكر الفرنسي .

وهو من الكتاب الفرنسيين الذين قرأت لهم تقريبًا كل ما كتبوه ، سواء في لغته الأصلية أو في الترجمة العربية ، إذ هو أيضًا من المحظوظين الذين تترجم كتبهم للغتنا بنفس الرغبة التي كانت تترجم بها كتب جوستاف لوبون في عهد ما قبل المد اليساري في العالم العربي .

وجارودي من الذين كتبوا عن الحضارة العربية بإعجاب واطمئنان وإقرار بأن في التراث العربي الإسلامي ما قد لا يحتاج معه العرب لغيرهم ، إذا أرادوا البحث عن جذور لفكر يساري عربي ، فهو من هذه الجهة يتفق مع لوبون في تقدير حضارتنا وتاريخنا .

وكتاباته مسنجمة واضحة تجذب القارئ للاستمرار في مطالعتها بالفرنسية دون سأم أو ملل ، وكأن قارئها يتلو رواية متصلة الحلقات . ومع الانقلاب

---

(١) أما أصل البحث فمؤرخ بيوم ١٥ يونيه ١٩٧٣ ، أي قبل ثلاثة عشر شهرا من الوفاة ..

(٢) معلوم أن روجيه جارودي أعلن إسلامه سنة ١٩٨٢ ، أي بعد كتابه (البديل) بنحو عشر سنين ، وغيَّر اسمه إلى رجاء جارودي .

الذي حصل له في تفكيره فإن أسلوبه لم يتغير ، وإنما تغير منطقه التاريخي وحبه في الاجتهاد والتأويل .

وقد سبق أن تعرفت على جارودي مرتين . إذ زارني رفقة رفاقه المغاربة [١] ، ولم يكن حديثنا خارجًا عن الوضع الاستعماري للمغرب ، لأن الحماية كانت ما تزال قائمة ، وكان من الشيوعيين الذين يبحثون عن التوفيق بين مقاومة الاستعمار ، والإبقاء على نوع من الرباط مع فرنسا ، لأن ذلك هو الاتجاه الذي كان يسود الوسط اليساري الفرنسي قبل الحرب الأخيرة وبعدها .

بقي روجيه متعلقًا بالحزب الشيوعي طيلة ماضيه ، ولو أنه بدأ ينظر إلى مقولات الشيوعية الأرثودوكسية بعين الشك منذ أن بدأت الوطنيات تطغى على الدولية في نظر معظم المفكرين الماركسيين اللينيينين وفي ممارستهم . لقد كان تيتو أول منذر بالخطأ الستاليني في تطبيق ثورة أكتوبر وأفكار ماركس ، وأولَ محاول لجعل الممارسة في شكل تسيير ذاتي يشترك فيه الكل ، ولكن ضمن القيادة العليا للحزب وللرئيس التاريخي للثورة اليوغوسلافية . ولكن هذه المحاولة الجادة اصطدمت بالمعارضة القاسية من الستالينية ، ومن حالة التخلف الاقتصادي والاجتماعي الذي كانت فيه يوغوسلافيا ، فبرز التناقض الأصيل بين الفكر والممارسة ضمن الشيوعية الوطنية ، كما ضمن الشيوعية الدولية ، وبقيت ثنائية الحكم والشعب ، والحزب والقيادة ، تفعل فعلها في إعاقة التطور الذي بدأته المحاولة التيتلوية الكبرى ، وكان صدور كتاب جلاس «الطبقة الجديدة» إنذارًا بالخطر الذي يهدد الشيوعية من ممارسيها ، ثم ظهرت الانتفاضات الأخرى في الديمقراطيات الشعبية ، وظهر ــ كما يقول

(١) يقصد الشيوعيين المغاربة ، المنضوين يومئذ في الحزب الشيوعي الفرنسي .

جارودي ـ أن هناك فرقًا أساسيًا بين الشيوعية كحركة وممارسة وبين الشيوعية الروسية ، فلا غرابة أن تحاول الصين المتحررة من كثير من رواسب الحضارة البورجوازية الغربية صنعَ حضارة بديلة عن حضارة روسيا وأوربا الغربية معًا»[١] .

البديل وبديله :

البحث الذي كتبه علال الفاسي حول بديل جارودي ، ليس مجرد قراءة معمقة ودراسة تحليلية للكتاب ، بل هو ــ في ثنايا ذلك ــ يقدم لنا النموذجَ الحضاري التقدمي الذي كان جارودي يبحث عنه ويصبو إليه .

أما كتاب «البديل» فهو عبارة عن محاكمة فلسفية لأزمة النظرية الشيوعية ولتجربتها التطبيقية ، السوفييتية الستالينية ، مع تقديم رؤية بديلة لتجاوز تلك الأزمة . إنه محاولة لتجديد الفكر الشيوعي وتطويره وتحريره من الستالينية السوفييتية ، التي كانت حتى ذلك الوقت مهيمنة على معظم الأحزاب الشيوعية في العالم .

فجارودي عند إصداره لهذا الكتاب ، كان لا يزال يعتبر نفسه ماركسيا مخلصا ، ولكن مشكلته كانت مع الممارسة والتطبيق . فهو يومئذ ــ كما وصفه الدكتور إبراهيم دسوقي أباظة ـ «يؤمن بالماركسية ويكفر بتطبيقها» [٢] .

فهو يقدم نقدا بليغا للتجربة الشيوعية ، بمآلاتها الكالحة ؛ من قبيل دكتاتورية النخبة الحزبية وتفردها ، بدل دكتاتورية البروليتاريا الموعود بها . ومن قبيل طغيان الدولة وتغولها واحتكارها لكل شيء ، بدل التوقعات والوعود الشيوعية بزوال الدولة والاستغناء عنها . ومن قبيل تحويل الطبقة

(١) بديل البديل ـ إشراقات علال الفاسي الفكرية ص ١٢ـ ١٣ .

(٢) من تقديمه لبحث «بديل البديل» ـ إشراقات علال الفاسي الفكرية ، ص٦ .

العاملة إلى مجرد ماكينات جديدة ، عمياء صماء . ومن قبيل خسارة كل التجارب والأحزاب الشيوعية للشرائح الشبابية . وهذا فضلا عن الفراغ الروحي للفلسفة الماركسية ، والتحجر الفكري للطبقة الحاكمة الجديدة . فحتى المعارف والعلوم الإنسانية تحولت إلى مجرد ثقافة إيديولوجية «تخفي الواقع بدلًا من أن تكشفه ، فالعلوم الإنسانية وعلم الاجتماع وعلم النفس كلها أداة «تَكَيُّفٍ» أفضل مع شكل استلابي في ذاته ، يتبعه تدمير الشخصية بدلًا من تطويرها» (١) .

وفي الوقت الذي شدد فيه جارودي نقده للنموذج السوفييتي ، حتى طرد من الحزب الشيوعي الفرنسي لأجل ذلك ، كان يعرب عن إشادته وتفاؤله بخصوص التجربة الشيوعية الصينية ، الواعدة بنموذج ناجح متميز . ومن ذلك قوله : « والحق أن الشيوعيين الصينيين في سبيلهم إلى بناء نموذج للتطور هو بمثابة بديل جذري عن نموذج الحضارة الغربية السوفياتية . فها هي ذي في مواجهة حمى النمو والمزاحمة : مدن بلا مصارف ولا إعلانات ، وبلا مخدرات وبلا كحول ، وبلا سيارات خاصة (٢) . ولم تعد شانغهاي المركز العالمي للأفيون وللبغاء ، وتقدمت المواصلات المشتركة على السيارة الفردية .

وهذا كله ليس من نتائج التخلف كما يزعم الزاعمون ؛ لأن البلدان المتخلفة غالبًا ما تجمع بين بؤس معمم وبين ترف غربي لطبقة ضئيلة من أصحاب الامتيازات ، وإنما نحن أما اختيار إنساني أساسي يتطلب المزيد من الثورات الثقافية حتى يستمر نمط الحياة الاشتراكي في الاختلاف عن سائر

(١) بديل البديل ـ إشراقات علال الفاسي الفكرية ، ص١٧ـ ١٨ .

(٢) والبديل هنا هو تطويرهم لوسائل النقل العمومي ، وتيسيرها للجميع .

الأنماط في غاياته كما في وسائله» [١] .

ويعلق علال الفاسي بقوله : «لا شك أن هذا الوعي بالأخلاقية الجديدة في الصين ، التي لا يمكننا نحن أيضًا كمسلمين إلا أن ننشدها ، «مدنًا بلا مصارف ، ولا إعلانات ، وبلا مخدرات وبلا كحول ، وبلا سيارات خاصة ... ودون أن يكون السبب في ذلك التخلف ، وإنما هو اختيار ضمن ثورة ثقافية منبثقة من الوطن نفسه» ، أثارت حماس جارودي فبدأ يجادل داخل الحزب الفرنسي لإخراجه من طابع الأرثودوكسية» [٢] .

«إن جارودي لا يريد أن يتحيز لجهة ما ، لا يريد أن يؤسس حزبًا ، ولكنه يريد أن ينفخ روحًا في كل حزب ، وفي كل نقابة ، وكل معبد! وهذه غاية نبيلة تجعله يبحث عن الكتلة المتحالفة من جميع العناصر لإحداث ما يجب أن يحدث .

والذي يجب أن يحدث هو التغيير : تغيير البنى أولًا ، وتغيير الضمائر ثانيًا» [٣] .

خلاصات سعيدة :

الحقيقة الساطعة والخلاصة الجامعة في تحليلات جارودي هي «أن مبدأ المشروع الحر الرأسمالي الذي يجعل من المال بضاعة ، أي يُمَكِّنُهُ «من الإنجاب بدون عمل» ، والذي يَعُدُّ مسألة توظيف المال قضية خاصة «التوظيف في البورصة ، أو في المضاربة على الأسهم» تترتب عليه ثلاث نتائج أساسية :

١ـ تركز الثروة والقوة بين أيدي أقلية تتضاءل .

٢ـ سباق أعمى على الربح للربح ، والنمو للنمو .

---

(١) جارودي (البديل) ص ١٦٦ النص العربي .

(٢) بديل البديل ـ إشراقات علال الفاسي الفكرية ، ص١٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص١٩ .

٣ـ سؤدد المال على جميع النشاطات القومية ، بحيث تصبح جميع القيم الإنسانية «قيمًا» بالمعنى البورصي لكلمة Valeurs ، وبالتالي خاضعة للبيع بالمزاد العلني .

لقد ذهب جارودي يؤيد ادعاءاته هذه بنصوص من ماركس في «رأس المال» ، على أساس تعميم ما قاله ماركس عن ملكية الأفراد ، على المشاريع المتحدث عنها .

وكم نحن سعداء أن نرى مفكرين في مستوى جارودي يصلون إلى إدراك حقائق بعد تجارب الرأسمالية والستالينية التي ما تزال قائمة في كل أقطار الاشتراكية ولو بغير اسمها .. حقائقَ نعتبرها نحن في مقدمة المبادئ التي نؤمن بها كمسلمين ، والتي هي إحدى أسس البنى الاقتصادية الإسلامية .

١ـ فاستنكار مبدأ المشروع الحر الرأسمالي الذي يجعل من المال بضاعة ، يتفق مع القاعدة الأساسية في الإسلام ألا وهي اعتبار المال وسيلة لا غاية ، والتي يستنبطها الغزالي من الحديث الشريف : «**الدراهم والدنانير خواتم الله في الأرض**» .

أي أنها مجرد الأذون التي يُسمح بها لإمكان التعامل مكان المقايضة البدائية . ومن أجل هذا منع الإسلام ادخار المال وعدمَ ترويجه ، لأنه تجميد له وإعاقه عن الإنتاج النافع . وترويجه بالوسائل المشروعة يوصله إلى أيدي الجميع .

لقد سبق لي أن أوضحت هذا بتفصيل في فصل الفكر الاقتصادي من كتابي النقد الذاتي [1] ولقد قلت في كتابي مقاصد الشريعة ما يلي : «ولا شك أن

(١) علال الفاسي : «مقاصد الشريعة ومكارمها» ص ٢٥٧ ، والنقد الذاتي ص ١٨١ ، ط ٣بيروت .

تكديس المال واعتباره غاية يؤدي إلى الاتجار فيه كبضاعة ـ مع أنه أداة لاقتناء البضاعة ـ وذلك ما يعني الربا ، أي النظام الرأسمالي الذي لا يراعي في أسباب الكسب المشروعَ من غيره . وقد حرم الإسلام الربا لأنه مبني على اعتبار المال غاية وعدم تقدير قيمة العمل . ولأنه يؤدي إلى أكل أموال الناس بالباطل» [١] .

٢ـ أما آلية تراكم الرساميل التي يعبر عنها جارودي بإتاحة إمكانية تحويل كل ما هو ضروري للحياة ـ ولا سيما وسائل الإنتاج والتبادل ـ إلى ملكية خاصة ، كما يتيح إمكانية حصر احتكار هذه السلطة بعدد متضائل بأفراد من الأشخاص ، فهذا عمليًا ما علل به القرآن الكريم ضرورة قسم الغنائم التي كانت في عهد نزول القرآن أحد أسباب التملك الأساسية ، وذلك بقوله تعالى : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر :٧] . أي أن المال المكتسب يوزع طبقًا لقاعدة شرعية تضمن لكل ذي حق حقه ، حتى يتمكن الكل من المساهمة في الدخول العامة ، ولا يبقى المال دولة ، أي متداولا ، بين جماعة من أغنيائنا . وقد جاء في كتابي آنف الذكر عن هذا الموضوع ما يلي : «وهذا ما يوضح تمامًا أن وسائل الكسب يجب أن تكون في متناول الجميع ، وأن تعتبر وسيلة لا غاية ، لأن الغاية هي ضمان ما به قوام الحياة للجميع لا تكديس الأموال واستكثارها . ولذلك علل الشارع الحكيم توزيعَ الغنائم على مستحقيها بقوله : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ أي حتى لا ينحصر رواج المال في يد فئة من الأغنياء دون غيرهم من الناس [٢] .

يقرر جارودي كنتيجة لمبدأ المشروع الحر أن تصبح القيم الإنسانية قيمًا بالمعنى

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

البورصي للكلمة ، أي السباق الأعمى على الربح للربح والنمو للنمو ، وهي حقيقة ثابتة قطعًا ، أصبحت بها المسلمة المقدسة والضمنية في آن واحد لمجتمعنا هي : كل ما هو ممكن تقنيًا مرغوب وضروري ، وليس كمثل هذه المسلمة أذية ومضرة اليوم [١] .

٣ــ ويصل جارودي إلى حقيقة إسلامية خالدة حينما يعلن أن الثورة (التغيير) لا يمكن أن تتحدد اليوم بتغيير البني فحسب ، وليست المشكلة الأساسية مشكلة عنف التغيير أو مشروعيته ، بل مشكلةُ مضمونة واتجاهه ، إذ الثورة الأصيلة الوحيدة هي تلك التي تتيح للجميع أن يحيوا حياة أغنى ، أي أكثر خلقًا وإبداعًا . ويقول بعد : إن الاشتراكية والحرية غير الممنوحين (من الخارج) والمنتزعين من قبل الشعب انتزاعًا : تقتضيان أن يترافق تغيير البنى بتغيير الضمائر [٢] .

تغيير الضمائر ، إنها الكلمة التي كان يجب أن تقال منذ زمان ، والتي يفسرها جارودي على طريقته في فصل بعنوان : «تغيير للضمائر ، لا (دين أفيون الشعب) ، ولا إلحاد وضعي» [٣] .

وبجرأة مدوية في عالَم الفكر الشيوعي الماركسي ، يقول جارودي : «لقد تساءلت طول حياتي عما إذا كنت مسيحيًا؟ وطول أربعين عامًا أجبت بالنفي . وهذا لأن المشكلة كانت تطرح على غير وجهها الصحيح ، وكأن الإيمان يتنافى وحياة المناضل . وإني لواثق من الآن فصاعدًا بأنهما شيء واحد ، وبأن رجائي

(١) جارودي «البديل» ص ٥٠ ، وأماكن أخرى .

(٢) «البديل » ص ٨٢ .

(٣) بديل البديل ـ إشراقات علال الفاسي الفكرية ، ص٢٤ .

كمناضل لن يكون له من أساس بدون هذا الإيمان» [١] .

وهي الجرأة ذاتها التي أعلن بها إسلامه وتصوره للخلاص الإسلامي بعد ذلك بسنوات . وبهذه الجرأة أيضا ظل يواجه أمريكا وإسرائيل ومن معهما من الأروبيين ، مفندا أقدس أساطيرهم الصهيونية .

ويستخلص الأستاذ علال أن التصور الجديد للاشتراكية عند جارودي يرتكز على ثلاثة أسس ، هي :

١ـ الديموقراطية المباشرة ، أي توزيع السلطة لا نقلها أو تحويلها .

٢ـ التسيير الذاتي الاقتصادي .

٣ـ الاتحادية السياسية .

ثم يضيف علال : «وكم كنت أود أن يزيد إلى هذه الأسس الثلاثة ـ لينسجم مع مجموع أفكاره ـ المطلبَ الآتي : دمقرطة التعليم العالي ، حتى لا يبقى هنالك فارق بين طبقة وأخرى في المعرفة» .

مشكلة التنظيم والنظام ، بين جارودي وعلال :

يقول جارودي : «إننا لسنا بحاجة إلى أنظمة لم تجعل من الحاضر إلا تاريخًا مثله مثل تاريخ الأموات ، بقدر حاجتنا إلى أفكار تتصاهر وتتلاحم لتُكَوِّن إشارات أو أدوات أو أسلحة لاختراع المستقبل وتحقيقه» .

وليست هذه المرة الأولى التي يعرب فيها جارودي عن سخطه وتبرمه من الأنظمة والأجهزة التنظيمية ، وما تفضي إلي من استبداد ومصادرة للطاقات والمبادرات الإبداعية لدى الأفراد . بل هذه إحدى مؤاخذاته الجوهرية ضد

(١) البديل ص١١٣.

التجربتين الرأسمالية والشيوعية معا .

وبدرجة مماثلة من عمق الإدراك وواسع التجربة ، يعلق الأستاذ علال الفاسي على فكرة جارودي بقوله : «وقد يستغرب القارئ عدم الحاجة إلى التنظيم . ولكنه يجد بعد صفحتين هذه الجملة التي تجعله يتقبل القول بكل الرضى : «فالتنظيم لم يتميز قط حتى الآن عن تفويض السلطة واستبداد العدد الصغير» . ويقول بعد : «إن الإنسان إذا تنازل عن حقه في المبادرة التاريخية ، فإن التنظيم سيستعبده بدلًا من أن يكون في خدمته» .

إنها حقائق يكتبها ماركسي متحرر عجيب . هذه الحقائق التي ذكرتني بما سمعته من شيخ عالم مسن معمر عراقي ، هو الشيخ الزهاوي ~ [١] ، كنت أتذاكر معه في نزله بكراتشي في شأن الإعداد لبعض المؤتمرات الإسلامية التي كنا نعمل فيها معًا هذا الشيخ البعيد عن كل ما يروج بأفكار جارودي ، للفوارق العديدة بين فقيه حنفي إسلامي لم يعرف غير العربية ، ومن الجيل السابق ، وفي أخريات أيامه ، وبين مثقف عميق الفكر على الطريقة الغربية السوفياتية ، هذا الشيخ تحدثت معه عن ما ينقص المسلمين من تنظيم فنهض في وجهي بكل الاحترام الذي كان يحمله لي قائلًا :

دع عنك التنظيم ؛ هذا فكر غربي لا يؤدي إلا إلى التخلي لفئة قليلة عما يجب أن يعمله الجميع . فمن ذا الذي ينكر بعدُ أن الإنسان حين يفكر مجردًا عن كل غرض يعثر على الفكر الإنساني اللاشرقي واللاغربي؟» [٢] .

---

(١) الظاهر أن المقصود به هو : العلامة الداعية أمجد الزهاوي رئيس رابطة علماء العراق، ولد في بغداد عام ١٣٠٠هـ ، الموافق عام ١٨٨٢م ، وتوفي في عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

(٢) بديل البديل ـ إشراقات ص٣٦.

ويذكرني حديث هؤلاء السادة الكرام عن المسألة التنظيمية وسلبياتها ، بحادثة ترجع إلى نحو عشرين سنة ، لا بأس أن أذكرها لصلتها الوثيقة بالموضوع . فقد كنت في جلسة حوار من الأخ الأستاذ محمد يتيم [١] ، واسترسل حديثنا حتى وقف على بعض العوائق التنظيمية الضارة ، فقال متأسفا : قاتل الله التنظيم! فقلت له : بل قاتل الله آفاتِ التنظيم ، فضحكنا واتفقنا على أن التنظيم ضرورة ، ولكنه أيضا مشكلة . فلا مفر من اعتماده ، ولكن لا بد أيضا من الوقاية والعلاج من آفاته وأغلاله . وهي معادلة ليست بالسهلة .

ولقد كنت أجدني أحيانا ـ وأنا رئيسُ حركة إسلامية [٢] ـ إذا جاءني أحد الأعضاء ببعض الأفكار والمقترحات الجيدة ، لكي تتبناها الحركة وتنهض بها ، قد أصرفه عن الحركة ، وأوجهه وأشجعه على جعلها مبادرة خاصة ، تُدرس وتنفذ مع بعض الأفراد الآخرين ، سواء من أعضاء الحركة أو من غيرهم . وذلك لأن بعض المبادرات قد تكون بحاجة إلى سرعة الحسم والإنجاز ، أو بحاجة إلى التحرر من حسابات الحركة وتعقيداتها ... بينما لو أردتُ عرضها على الحركة ، في خضم انشغالاتها وبرامجها ، ومن خلال مؤسساتها التنظيمية ، ومداولاتها الشورية ، فلربما فات وقت الفكرة ، أو فات الوقت المفضل لها ، وربما رُفضت داخل التنظيم ، أو ربما تتقرر ، لكنها تتعثر ولا تنفذ .

وهذا فضلا عما في اللجوء دوما إلى التنظيم ، والتعويل عليه ليفكر ويقرر

---

(١) القيادي بحركة التوحيد والإصلاح ، وبحزب العدالة والتنمية ، ورئيس نقابة الاتحاد الوطني للشغل بالمغرب .

(٢) أعني هنا حركة التوحيد والإصلاح ، وقبلها رابطة المستقبل الإسلامي .

وينفذ ، من شلٍّ للعقول ، وتكبيل للطاقات والحريات ، وقتلٍ لروح المبادرة والمسؤولية ، وهو ما عناه العلماء الثلاثة .

*****

obeikandl.com

obeikandl.com

في الخاتمة والختام

في خاتمة «البديل» : يؤكد جارودي أن كتابه التزام له ولمن يقرأه ، وأنه كتب بمداد القلق والأمل ، لا بروح الجدال والمماحكة .

وفي ختام «بديل البديل» : يقول علال : «لقد حُبب إلي أن أشرك معي جملة وافرة من القراء ، ليعلموا كيف يتطور الفكر في العالم ، ولينظروا إلى موجة الأمل الجديدة التي تقترب منا ، عن طريق القلق والأمل ، لا عن طريق الجدال والمماحكة» [١] .

فصاحب «البديل» وصاحب «بديل البديل» يجمعهما القلق والأمل ، وتجمعهما غاية واحدة : هداية البشرية وسعادتها .

*****

(١) بديل البديل ـ إشراقات ص٣٧.

obeikandl.com

obeikandl.com

كتاب
الحرية[١]

هذا الكتاب من أواخر ما اشتغل علال الفاسي بتأليفه من كتبه ، حتى إنه توفي وهو لم يكمله بعد . ولكن بداية الاهتمام به والكتابةِ فيه قديمة ، حيث ترجع إلى سنة١٩٥٩ . ففي أكتوبر من هذه السنة ألقى محاضرة بعنوان (الحرية) ، بقاعة الغرفة التجارية بالرباط[٢] . ونجد بين المحاضرة والكتاب عدة أفكار وفقرات مشتركة . وقبل محاضرة ١٩٥٩ بنحو عشر سنين كان علال الفاسي قد كتب عدة مباحث عن حرية الفكر والتحرر الفكري ، في كتابه النقد الذاتي ، الذي سبق التعريف به في هذا الفصل .

وقد لخص الأستاذ عبد الكريم غلاب في تقديمه للكتاب أهم محتوياته وأهم سماته بقوله : «والكتاب الذين نقدمه ليس إلا ثمرة مجهود فكري قام فيه علال المفكر بدراسة وافية عن الحرية في نشأتها كفكرة ، وتطورها عند المفكرين القدماء ، وفي الفكر المسيحي ، وفي عصر التنوير ، وفي الفكر الأوربي الحديث ، وفي الفكر الماركسي . وقد كان يود ـ كما يشير إلى ذلك داخل الكتاب ـ أن ينتهي به البحث إلى دراسة الحرية في الفكر الإسلامي ، وإلى بسط أفكاره وآرائه في الحرية . ولكن الأجل استعجله ، فرحل دون أن يحقق ما كان يطمح إليه . ومن المشاريع التي كان يطمح إليها إكمال هذا الكتاب .

ومن المؤسف أن هذا الكتاب القيم لم يستوف كل المخطط الذي وضعه

---

(١) الكتاب نشرته لجنة إحياء تراث زعيم التحرير سنة ١٩٧٧.

(٢) نشرت في كتيب مستقل ضمن (سلسلة الجها الأكبر ـ رقم١٤) سنة ١٩٨٧.

علال الفاسي ، فقد كان بحثه عن الحرية في الإسلام سيكون مفيدا وعميقا ، كما نتوقع ، لما نعرفه من ثقافته الإسلامية ، وعمق إدراكه لأسرار الإسلام ، وأبحاثه في فلسفة الإسلام ، وأهدافه التحريرية ، ومقاصد الشريعة وأسرارها [١] ، كل ذلك يؤكد عمق الرؤية وقوة الحجة وبراعة التحليل ، مما كان سينطبع على بحثه عن الحرية في الإسلام .

ورغم أن الأجل عاجله ، فلم يتم الكتاب ، فقد قطع شوطا مهما في الكشف عن أسرار تاريخ الحرية ، وليس تاريخا سرديا تقريريا بمقدار ما هو تاريخ تحليلي غني بالمقارنة والبحث والتعبير عن وجهة النظر .

وعلال الفاسي كما نعرف من تاريخه النضالي وتاريخه الفكري لم يكن يهدف العمل لذاته ، ولكنه كان يستهدف دائما إبلاغ الدعوة للآخرين : دعوة نضالية ودعوة فكرية على السواء . وفي كتابه هذا كما في كل كتبه ، لم يكن يستهدف جمع المعلومات ومقارنتها والبحث فيها لمجرد الجمع والبحث والمقارنة ، ولكنه كان يستهدف الدعوة إلى اعتناق الحرية فكريا ونظريا ، وعن طريق تقديم المثل العملي ، كما كان يستهدف في نضاله من أجل الحرية أن يعلم الآخرين كيف يناضلون لتحقيق الحرية .

وهذا مما يضفى على هذا الكتاب قيمة نضالية إلى جانب قيمته العلمية ، وما يبعث المثقفين ـ والشباب منهم بصفة خاصة ـ على قراءته قراءة واعية .

وما من شك في أنه انطلق في بحثه من إيمانه المطلق بالحرية ، فلم يكن علال الفاسي محايدا وهو يبحث عن هذه القيمة ، ولكنه كان محاميا أكثر منه قاضيا .

---

(١) لعل أكثر ما يسد هذه الثغرة ويجلي هذا الجانب ، هو ما كتبه عن مقصد الحرية ضمن «نقاصد الشريعة ومكارمها» ، ص٢٤٨ـ ٢٥١ . وسأنقل قريبا فقرات من هناك .

حياته كلها حياة المحامي من أجل الحرية ، ونضاله الفكري كله من أجل الحرية ، وكان يتغنى في كل ما كتب من نثر وشعر بالحرية . ولم تخطئه حاسة المحامي حتى وهو يكتب هذا البحث العلمي . ويمكن أن يدرك القارئ قوة العارضة التي يتحلى بها المحامون الكبار بين ثنايا هذا البحث .

يقول في أحد فصول الكتاب :

«إن الحرية في الإسلام ليست حقا من حقوق الإنسان فقط ، ولكنها واجبة عليها» .

ونجد هذه الجملة البليغة في فصل آخر :

«إننا لسنا أحرارا في أن نعبد أنفسنا» .

وفي فصل آخر نجد هذه الجملة :

«إن الحرية أعظم صفات الوجدان الإنساني» .

ويتساءل في فصل آخر قائلا :

«ما الذي يضفى القيمة على العمل؟ أليس الحرية؟» .

ويقرر في فصل آخر هذه الحقيقة :

«تاريخ الإنسانية كله هو تاريخ الحرية» .

لا نريد أن نطيل في الاستشهاد ، وإنما نريد أن نشير إلى أن علال الفاسي لم يكن يصدر في دفاعه عن الحرية عن عاطفة وتطلع فحسب ، ولكنه كان يصدر عن علم ومعرفة وثقافة . وقراء هذا الكتاب من المثقفين سيدركون ذلك ، وسيدركون أنه وفر لهذا البحث جهدا لا يقل عن الجهود التي وفرها لكتبه «كالنقد الذاتي» و«مقاصد الشريعة» و«دفاع عن الشريعة» وغيرها من الكتب

التي تفخر بها المكتبة العربية»[١].

وإذا كان المؤلف لم يتمكن من استكمال كتابه، وخاصة تناوله للموقف الإسلامي من قضية الحرية، فإننا نجد عنده من الإشارات والمقارنات ـ في هذا الكتاب وفي غيره ـ ما ينبئنا عن بعض مضامين هذا الجانب، مما يعطينا نبذة ـ أو فكرة ـ عما كان سيكتبه لو قيض له إتمام هذا الكتاب، كتاب (الحرية).

من ذلك قوله بعد عرض موقف الكنيسة المسيحية من الحرية: «وسنرى كيف أن التاريخ الإسلامي لم يقع في مثل هذه الآثام، لأن الإسلام أول مرة حمَّل العلماء والشعب أمانة الحرية الشخصية، ومقاومة كل رهبنة أو خضوع لعالم أو مفت، ونعى القرآن على المسيحين تلك تلك الطاعة لرهبانهم، حيث قال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ [التوبة:٣١]. وقد روي تفسير اتخاذ الأحبار أربابا بمعنى الطاعة لهم، فتلك عبادتهم إياهم»[٢].

وبعد توصيفه للموقف الكنسي المعادي للحرية ولتاريخه الطويل في كبحها وقمع رموزها، يشير إلى الموقف الإسلامي الذي كان ينوي العودة لبيانه ـ لولا الأجل ـ فيقول: «إن الإسلام كما سنبنيه هو الذي تقدم بالدعوة إلى الفكر، ونادى بالتحرر من الطغيان، ونبذِ الإكراه في الدين، ولذلك فهو من جهة لن يكون إلا مع الذين يدافعون عن الحرية».

وعلى منهجه المنصف الصريح يستدرك قائلا: «وسنبين أن الإسلام أيضا

(١) الحرية ص ٣ ـ ٦.

(٢) الحرية، ص٢١.

أصيب في تاريخه الأول بثورة مضادة ، أفسدت عليه ازدهار الحرية الحرة كما أرادها الإسلام ، ولكن مشيئته الكبرى لم تُعَفِّ على معالم الحقيقة ، بسبب حفظ القرآن وقيام مجددين له في كل وقت» [١] .

وفي محاضرة «الحرية» ـ وهي النواة الأولى لكتاب الحرية ـ يتطرق إلى أصل الحرية ومنبعها ومِن أين تستمد مشروعيتها الفلسفية والإسلامية ، فيرى أن «الحرية ليست شيئا اعتباطيا كما يقوله بعض الفلاسفة ، يعني وقعت بالصدفة ، والحرية ليست شيئا طبيعيا كما يقوله بعض المكافحين عن حقوق الإنسان ، والحرية ليست شرعية وضعية كما يقوله كذلك المعلقون على حقوق الإنسان في الأمم المتحدة ، ولكن الحرية الإسلامية هي حرية شرعية ، ليست طبيعية . حرية شرعية فعلية ، ولكنها بشرع الله وفعله ، حيث قال سبحانه وتعالى في عالم الأزل للعالم أجمع ، للبشرية كلها : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢] . يوم قال الله للإنسانية كلها : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ وأجابت الإنسانية مختارة : بَلَى أنت ربنا ، وتحملت الإنسانية هذه الأمانة الربانية وأصبح الإنسان خليفة الله في الأرض في عمارتها ، منذ ذلك الوقت وقع ميثاق تأسيسي ، ميثاق دستوري بين الله وبين البشر في أن يحكموا هذه الأرض ويعمروها طبقا للنواميس الكونية التي وضع الله في هذا الكون ، لا للطبيعة ، ولكن النواميس الطبيعية والاجتماعية والإنسانية . هذا هو الأصل الأصيل في الحرية الإسلامية ، فهي شرعية بهذا الاعتبار ، ولكنها فطرية باعتبار الواقع» [٢] .

فالحرية في نظره ليست هي الإقدام الطليق على التصرفات وتلبية الرغبات ،

---

(١) الحرية ، ص٤٦ ـ ٤٧.

(٢) محاضرة (الحرية) ، ص ٨ ـ ٩.

فهذا النوع من الحرية وإن كان موجودا في عالم الأذهان والتمنيات ، فلا وجود له ولا مكان له في عالم الواقع . «إن الحرية لا تعني أن يفعل الإنسان ما يشاء ويترك ما يريد ، فذلك ما يتفق مع طبيعة شهوته ، ولا يتفق مع طبائع الوجود ، كما ركب عليه ، ولكنها تعني أن يفعل الإنسان ما يعتقد أنه مكلف به وما فيه الخير لصالح البشر أجمعين . وإيمان الإنسان بأنه مكلف هو أول خطوة في حريته ، لأنها أول تحمل للمسؤولية التي ستناط به ، وليس معنى هذا أنه حر ما دام لم يتحمل ، فإذا تحمل أصبح حرا مكلفا على مبدأ الحرية الملتزمة كما يعبر الوجوديون ، ولكن المقصود أنه يبقى في فترة النظر والبحث إلى أن يقتنع بأنه مكلف ، فيكون قد اختار الحرية على الفراغ أو الفوضى أي عبودية التقاليد وما التصق به من الوسط الذي نشأ فيه . فإذا اختار الحرية فقد آمن بأنه مكلف ، فيصبح حرا لأنه يصبح مسؤولا ، ويصبح مسؤولا لأنه يصبح حرا» [١] .

وهو بهذا يرد على الفكرة الماركسية القائلة بأن الإيمان بالدين والتزام تكاليفه يتضمن تفويتا للحرية الطبيعية التي يولد الناس عليها ؛ «لأننا نرى أن الإنسان لم يخلق حرا بطبعه ، وإنما خلق ليكون حرا . الحرية خلُق ، وليست غريزة ، ولو كانت غريزة لما استطاع أحد تفويتها» [٢] .

الفكر غذاء والحرية هواء :

كما سبقت الإشارة ، فقد كتب علال الفاسي عن الحرية أيضا في كتاب النقد الذاتي ، وركز هناك خاصة على الحرية الفكرية ومدى أهميتها وضرورتها .

فهو يرى أن الفكر لا يكون صحيحا ومجديا إلا إذا كان يتم في مناخ الحرية

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها ، ص٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) مقاصد الشريعة ، ص ٢٤٩ .

ويتنفس هواءها ، وبدون ذلك لن يكون إلا فكرا زائفا أو عقيما . وإذا كانت أهمية الفكر تجعله بمنزلة الغذاء ، فأهمية الحرية بمنزلة الهواء . وحرية التفكير تبقى بدون فائدة ، إذا لم تكن معها حرية التعبير والبيان .

«إن الفكر حر لا يستطيع أحد أن يقيده ، ولم يجعل الله لأحد سلطانًا على حركة الإنسان الداخلية ، هكذا تعود الناس أن يقولوا ، ولكن هذه الحرية التي يحمدون الله عليها لا قيمة لها إذا لم يكن لها الحق في أن تظهر للناس» (١) .

«ويستعمل الديموقراطيون عادة لمعرفة الرأي العام في مسألة من المسائل أحد أمرين : الانتخاب بالاقتراع السري ، أو الاستفتاء . وكلا الأمرين لا يكون ذا قيمة حقيقية إلا إذا كان القائمون به مستعدين للإعراب عن أفكارهم بكامل الحرية وبكل الصراحة دون خوف ولا خجل» (٢) .

على أن هناك دائما من يَضيقون ذرعا بحرية التعبير ويريدون كبحها ، بدعوى أن الذين يتحررون «أكثر من اللازم» ، قد يأتون بأفكار قد تحدث من الضرر بالمجتمع أكثر مما تحدثه سرقة سارق أو خطيئة زان . أما علال فيرى أن «الحقيقة بعكس هذا ، لأن الأفكار يمكن أن تقاومها الأفكار ، والقول يدفعه القول ، فليس من الضروري أن تستعمل القوة لكتم أفواه الناس ، إن كل الأفكار التي تُبتكر تظهر غريبة لأول وهلة ، ولكنها إذا استطاعت الصمود لمقاومة خصومها والانتشارَ في وسط واع تصبح مألوفة ومعترفًا بها ، وقد تؤدي لمصالح عظيمة وتطورات جليلة ، والوسط الذي يمنع المفكرين من أن

(١) النقد الذاتي ، ص٤٨ .

(٢) النقد الذاتي ، ص٥٦ ، ٥٧ .

يظهروا بآرائهم يظل دائم الجمود غير قابل للتطور ولا للارتقاء» [١] .

والخلاصة عند علال : أن «حياةً بغير حرية لهي الموت المحض ، وأن وجودًا من غير فكر حر لهو العدم ، وأن مدنية لا تقوم على التحرر والتبصر لهي الوحشية الأولى ، ولو كانت في أحدث طراز» [٢] .

*****

(١) النقد الذاتي ، ص٥٣.

(٢) النقد الذاتي ، ص٨٣.

obeikandl.com